

الأدب الجزائري الحديث

توطئة

الأدب الجزائري أدب مستقل ، ذو خصائص ذاتية مستمدة من البيئة التي يعيش فيها الشعب الجزائري فهو أدب قومي وإن شارك الجزائريين فيه كتابٌ فرنسيون وأجانب ولدوا وعاشوا في إفريقية الشمالية ، لأن أدب هؤلاء تجاوز في تصوراته وموضوعاته المحيط الإفريقي إلى آفاق تتصل بالأدب الأوربي والروح الأومية أكثر منه بالأدب العربي والروح العربية ، فهو أدب مصطنع ، مجلوب ، غريب ، في حين أن الأدب الجزائري الذي يكتبه كتاب جزائريون هو أدب واقعي ، فيه انعكاس لروح الأمة الجزائرية في عواطفها وارتكاسها تجاه الوجود ، وأمانيتها وأساطيرها وتقاليدها . فالأدبان منفصلان متميزان يصدران عن عالمين منفصلين متميزين : اللاتيني والعربي .

ومن الغريب ، بل من سخرية الأقدار أن يجتمع هذان

الأدبان في نقطة مشتركة هي لغة التعبير ، فإن الأدب الجزائري الحديث يكاد يكون كله مكتوباً بالفرنسية لا بالعربية ، نعم ! بلغة فرنسية عالية لا تقل في رقيها ونصاعتها وروائها عن لغة أكبر كتاب فرنسا المعاصرين . ومرد هذا الشذوذ إلى الأوضاع التي خلقها الاستعمار الفرنسي في تلك البلاد منذ مائة وسبع وعشرين سنة ، فقد عمل الاستعمار عند احتلال الجزائر — التي فوجئت به ولم تكن قد أعدت له العدة واستكملت مؤهلاتها العلمية والقومية — أقول : إن الاستعمار عمل على القضاء على اللغة العربية وإحلال الفرنسية مكانها تمهيداً لعملية الامتصاص ودمج الشعب الجزائري في الأكثرية الفرنسية وربط مقدراته بفرنسا مباشرة ؛ وبما أن الفرنسية هي لغة المستعمر القوى فقد ترتبت على ذلك أمور وجد الجزائريون أنفسهم إزاءها أمام أمرين : إما أن يتأقوا علماً بسيطاً محدوداً يعطى على الطريقة البدائية القديمة لا يوفر لصاحبه شيئاً من التقدم والمنافع والارتقاء في السلم الاجتماعي ، أو علماً يدرس في مدارس منظمة ، حديثة توفر للطالب مزايا عقلية ومادية تسير التقدم والحضارة الحديثة ، فاختراروا الثاني — إن كان ثمة اختيار — بل لقد وصلت المأساة إلى حد أن زهد الجزائريون على مر الزمن

باللغة العربية ، وأقبلوا بحكم الواقع الاستعماري على تعلم الفرنسية جاعلين منها لغة تعبير وتخاطب وثقافة وعلم ، شأنهم في ذلك شأن الهنود والباكستانيين في اعتمادهم على اللغة الإنكليزية حتى صارت لغتهم الرسمية الخاصة . وهكذا فقد وجدت اللغة والثقافة الفرنسيتان مكاناً فارغاً في الجزائر فاحتلتاه ! .

وهذا لا يعنى أنه لم يكن بين الجزائريين من يجيد اللغتين ويتذوق الثقافتين ، إلا أن هؤلاء على قلتهم أصيبوا بما يصاب به كل متأرجح بين لغتين وثقافتين من تمزق في الشخصية الذي يؤدي — إن لم تسعفه الظروف والمواهب — إلى العقم والحفاف ، لأن إحدى اللغتين كما يقول الجاحظ تأخذ من الأخرى ، وتكون الغلبة في مراحل هذا الصراع للغة القوى الحاكم الذي يمهدها سبل التوغل والنمو والانتشار .

ويقيني أنه في اليوم الذي يتحرر فيه الجزائريون من محنتهم الاستعمارية ، فيتعلمون ويجيدون اللغة العربية ، فإنهم سيكونون في طليعة الشعوب الغربية المفكرة الواعية ، لأن المادة الفكرية عند الفئة الممتازة منهم موجودة ، والاستعداد الذهني والنضج العقلي كائنان ولا ينقصهم إلا أداة التعبير بلغة الضاد ، حتى إذا استكملوا هذه العدة ، وسدوا هذا النقص تكون

قد انضمت إلى الفكر العربي المعاصر عناصر حيوية جديدة تشد من أزره وتوسع من آفاقه ، بل أذهب بعيداً فإن تجديد الأدب العربي وبخاصة الروائي والقصصي منه سيكون على يد هذه الطليعة الجزائرية المثقفة من الأدباء والمفكرين .

طلع الأدب الجزائري حياً قوياً ، ولكنه لم يطلع في دنيا العرب بل في أدب الفرنسيين فاحتل الأدباء محمد ديب ومولود فرعون وإدريس الشرايبي ومولود المامري ومالك الواري ومالك الحداد وكاتب ياسين . وغيرهم مكانهم في الأدب المعاصر ذي التعبير الفرنسي ، وتميز هذا الأدب من غيره من الآداب في واقعته وقوميته وشدة ارتباطه بالأرض الجزائرية التي يعيش عليها شعب يريد الاحتفاظ على الرغم من سياسة التجهيل والإفقار المادي والفكري بمقوماته النفسية وذخيرته الروحية وطابعه الأصيل ، فلم ينس أدباء الجزائر في عالمهم الثقافي الرفيع ولغتهم المستعارة الحقيقة المؤلمة التي يعيش فيها أبناء قومهم ، بل عملوا ببراعة تحت ستار الفن الروائي على تثبيت صورة الجزائر في أذهان الفرنسيين ومن يجيد الفرنسية من بني قومهم ، ففي هذا الأدب مرارة وألم قلما يرتفعان إلى حد المطالبة الصريحة بالإصلاح والعدالة ، أو يهبطان إلى التضرع والشكوى ، بل بقي هذا

الأدب ضمن التعبير اخادئ الحميل يجلله الشعور بالكرامة والإيمان بالحق وعدالة القضية ويسوده الإباء والترفع .

إن الصفة البارزة في الأدب الجزائري الحديث هي « الواقعية » التي تعكس الأشياء والحياة والتجارب الفردية والجماعية في إطار فني ، فهو إذن أدب حقيقي كتبه أناس من صميم الشعب عميقو النظرة إلى الوجود ، شديدي الحساسية بالصلات الإنسانية التي تربط بين الناس ، تتطور وتتموج في أديهم شخصيات متنوعة الأشكال والشيات فتبدو في صراعها الداخلي مع ذواتها وفي تفاعلها مع العالم الخارجي المستكنة لمشيئته حيناً والثائرة المتمردة عليه حيناً آخر ؛ ولا أقصد بالإطار الفني ذلك الفن المجرد المتعالى عن محيط الكاتب فيعوقه عن تحقيق رسالته المفيدة بل الفن الذي يعكس الحقائق في شكل حسي والذي يصدر أحكاماً على مظاهر الحياة تلك الأحكام التي من شأنها إيجاد الوعي وخلق المعرفة بين طبقات الشعب في سبيل القضاء على عالم فاسد يدعمه نظام استعماري فاسد وتحقيق عالم أفضل وحال أحسن .

إن كتاب الجزائر يشكلون الطليعة الواعية التي فهمت الماضي ووعت الحاضر وتطلعت إلى المستقبل .

إننى سوف لا أعرض لجميع كتاب الجزائر شارحاً أو محلاً
 آثارهم فالعمل أصعب من أن أقوم به بل سأقصر كلامى على
 خمسة منهم وهم : إدريس الشرايبي ومحمد ديب ومولود فرعون
 وكاتب ياسين ومولود المامرى ولم يكن انتخابهم على سبيل
 الترجيح والتفضيل بل تبعاً للظروف التى يسّرت لى اقتناء
 آثارهم دون سواهم .